سكرة المنصب

هنا موقف عابر لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقع له على سجيته، لم يستغرق سوى وقت يسير جدّاً، ولكنَّ التاريخ دوَّنه ورواه، فتداوله الرواة، وسار على الأفواه، ووقع في النفوس موقعاً جليلاً، فما هذا الموقف؟

يحكي هذا الموقف عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فيقول: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك! سمرت عنده، فَغَشِي[1] السراج، وإلى جانبه غلام قد نام، قلت: ألا أنبِّهه؟ قال: لا، دعه، قلت: أنا أقوم، قال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام وأصلح السراج، ثم رجع، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضرَّني؟ قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر[2].

نعم لقد قام وهو عمر، ولكن رجع ولفعله في النفوس جلالة، ولقوله في القلوب عظمة.

وهذه هي العظمة حقاً أن تبلغ هذا المرتقى، ثم لا تتغير

(١) أي: أظلم.

(٢) السير، للذهبي (٥/١٣٦)، سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم (ص٤٦).

أخلاقك، ولا تتبدل طباعك، وأصحابك هم أصحابك، كما قال أبو تمام:

إنَّ الكرامَ إذا ما أَيسروا ذَكَروا ... مَنْ كانَ يَأْلفُهُم في المَنْزل الخَشِنِ(١)

وهذه هي الأخلاق النبوية، فالرسول ﷺ قد تسنم ذروة الشرف، وبلغ الرفعة التي لا تسامى، والرتبة التي لا يسمو إليها أمل، فهو سيد ولد آدم كلهم أجمعين، ومع ذلك كان متواضع النفس، خافض الجناح، يأتي السائل إلى مجلسه ﷺ لأول مرة فلا يميزه عن غيره، فيسأل فيقول: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم!(٢).

وتُسْألُ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»(٣).

وفي المجتمع أُناسٌ ذوو نفوس كبيرة تولوا مناصب باذخة، فشرُف بهم المنصب ولم يشرفهم، وتزيَّن بهم ولم يزينهم، هم على العهد كما قال الأول:

تزول الجبال الراسيات وقلبُه ... على العهد لا يلوي ولا يتغير(٤)

---

(١) ديوان أبي تمام (ص٢٩٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣).
(٣) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣).
(٤) هذا البيت ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/٥٢٧)، وفي مفتاح دار السعادة (١/١٢٧)، ولم ينسبه، ولم أعثر على قائله.

قد تحلَّوا بالتواضع، وازْدانوا بالإحسان، اتخذوا المنصب وسيلة لخدمة الناس، وتسهيل أمورهم، وقضاء حاجاتهم.

أما النفوس المَهينة الضعيفة فتجدها تغرق في كأس ماء، وتنزلق أقدامها في أدنى منصب، وتهز مبادئها لعاعةُ دنيا، وتُوْهي قواها كلمةُ مديح.

وتجد بعضهم رئيساً على اثنين، وقد شمخ بأنفه شبرين، ولسان حاله بيت سُحَيم بن وَثِيل الرِّياحي:

أنا ابنُ جَلا وطلَّاعُ الثنايا   متى أضعِ العمامةَ تعرفوني[1]

وقد سمَّى هذه الحالَ الإمامُ ابنُ القيمِ سُكْراً، فقال: «يحصل السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال.. ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه»[2].

ومن آثار هذا السُّكر أن ينظر أحدهم إلى موظفيه من علو، ويتعامل معهم برسمية، فلا يتلطف معهم بالكلام، ولا يلقاهم بابتسام، ولا يحب لأحدٍ منهم أن يتفوق عليه، وكلُّ نجاح فلا بد أن ينسب إليه.

ومن آثاره أيضاً ما حدَّث به أحدهم قال: كان في سن طلابي، وكنت أبذل له النصح والإرشاد، ثم فرَّقت بيننا

(١) الأصمعيات (ص١٧).
(٢) روضة المحبين (ص١٥٣).

السُّنون، فصرت لا أراه إلا لماماً، ولكني ألقاه حسن البِشر، ثم تولى منصباً، فصار يلقاني ثقيل النفس، منقبض الابتسامة، مستعجلاً، وكأني سأطلب حر ماله!

وقد أشار ابن القيم إلى هذا فقال: «كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحبِ الطالبِ للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي؛ وذلك غلط»(١).

وإذا رأيت الرجل تندفن معه المروءات إذا جلس على الكرسي، فاعلم بأنه قد لبس حذاء أكبر من رجله، فيوشك أن يعثر!

وإن أبلغ واعظ لمن عظمت نفسه في منصب أن يتذكر قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٦ ـ ٨]، فمن أيقن أنه إلى ربه راجع، وأنه إليه تصير الأمور، أذعن واستكان، وعرف قدر نفسه؛ ولم يطغَ.

وأن يتذكر أيضاً أنه لا يدوم أحد في منصبه؛ فمن العقل والحصافة أن يجعل له أثراً طيباً قبل رحيله؛ فالأمر على ما قال ابن دريد:

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

وإنَّما المرءُ حديثٌ بعده فكُن حديثاً حسَناً لمنْ وعَى[(١)]

وأيضاً فالأيام دول، والدنيا غير مأمونة العواقب؛ فربما اغتنى هذا الفقير الذي أغلقت في وجهه الباب، وارتفع ذلك المسكين الذي أغلظت معه الخطاب، كما قال الأضبط بن قُرَيع:

لا تهينَ الفَقِير علّك أن تركع يَوماً والدهر قد رفعه[(٢)]

ويقول عدي بن زيد:

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَه من اليوم سؤلاً أن يكونَ له غدُ[(٣)]

ومما يذكر هنا ما رواه علقمة بن وائل بن حُجْر، عن أبيه، وكان وقتها من ملوك اليمن، فجاء وأسلم، فأقطعه رسول الله ﷺ أرضاً، يقول وائل: فأرسل معي معاوية أن أعطها إياه، قال: فقال لي معاوية: يا وائل، إن الرمضاء قد أصابت باطن قدمي، فأردفني خلفك. فقلت: لا تكون من أرداف الملوك! قال: فقال: أعطني نعلك، فقلت: انتعل ظل الناقة.

ومضت السنون، واستخلف معاوية، وزاره وائل، فلم تمح تلك السنون المتطاولة موقف وائل هذا من ذهن

---

(١) العقد الفريد (١/ ١٩٤).
(٢) أمالي ابن الشجري (٢/ ١٦٦).
(٣) التذكرة السعدية (ص٢٥).

معاوية رضي الله عنه، ولكن معاوية ـ وهو الحليم ـ لم يكن ليجازي وائلاً بما فعل؛ بل تلقَّاه، وأكرمه، وأجلسه معه على السرير، وسأله: أسريري هذا أفضل أم ظهر ناقتك؟ فلم يكن من وائل رضي الله عنه إلا أن أعلن اعتذاره، فذكر سبب ذلك الجهل الذي وقع منه، وقال: يا أمير المؤمنين، كنت حديث عهد بجاهلية وكفر، وكانت تلك سيرة الجاهلية.

ثم أعلن وائل ندمه على ما فات، وقال: «وددت أني كنت حملته بين يدي»[١].

وفي هذه القصة عظة بالغة لمن تولى منصباً ألا يزهو على أحد؛ بل يلزم التواضع، ويخفض الجناح حتى يسلم من ذلك اليوم الذي يتجرع فيه غصص الندم، ويقول: ليتني أكرمت فلاناً، ولم أحتقر فلاناً[٢].

وما يقال لصاحب المنصب يقال للمشاهير وأصحاب الثراء أن يحاذروا من أن تصيبهم سكرة الشهرة والمال وهم لا يشعرون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) القصة أخرجها أحمد في مسنده (٢٧٢٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١١٧) والصغير (١١٧٦) وغيرهم، وصحَّحها ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٦٩).

(٢) وفي كتاب الهفوات النادرة، لأبي الحسن الصابئ قصة مشابهة لما جرى بين معاوية ووائل رضي الله عنهما رقم (٣٤١).